

9 789953 513645
Book # A 310
أصالة للنشر والتوزيع

دار النهضة العربية
اصالة للنشر والتوزيع – طبعة أولى 2009
ISBN: 978-9953-513-64-5
تلفون: 093 736 1 961+
فاكس: 071 736 1 961+
ص.ب.: 11/3434
الزيدانية، بناية كريدية – بيروت، لبنان

قطار الطفولة



تأليف: سمير مالطي

رسم: ميشال ضاني

أصحيحٌ أنّ الأشياءَ التي يُحرَمُ منْها الإنسانُ في صغرِه، يحاولُ أنْ يُحقِّقَها عندما يَكبُر؟

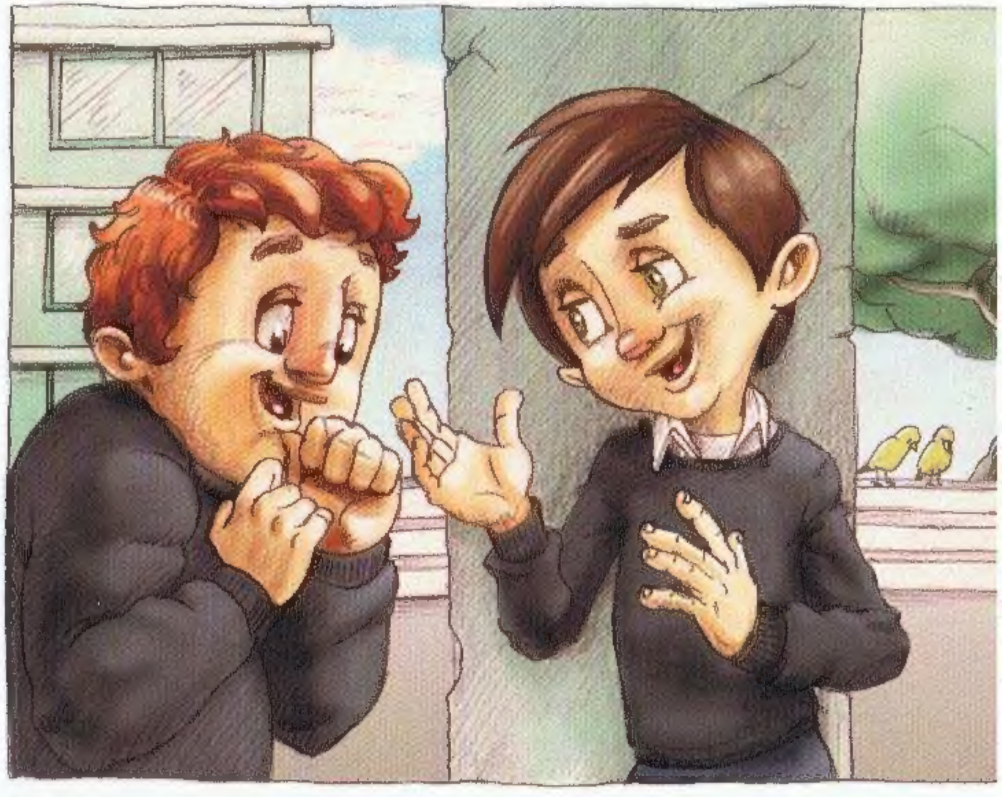
لقد حقَّقَ رمزي حلُمَ الطفولةِ وأصبحَ صاحبَ أكبرِ محلٍّ للألعابِ في السوقِ التي كان يمرُّ بها يومياً وهو عائدٌ من مدرستِهِ إلى بيتِه. وَها هو يقفُ الآنَ كلَّ يومٍ على بابِ متجرِهِ، وينتظرُ مرورَ الأولادِ وهم راجعونَ من المدرسةِ، فيُحادثُهُمْ ويلاطفُهُمْ ويعطيهُمْ هدايا كثيرةً منْ تلكَ الموجودةِ في محلِّه. إن تعابيرَ الإعجابِ أو الحزنِ التي ترتَسِمُ على وجوهِ الصغارِ عندما يقفونَ أمامَ واجهةِ محلِّهِ، وتعجبُهُم لُعْبةٌ ما، ولا يدخلونَ حتَّى لإلقاءِ نظرةٍ عليها، تذكِّرُهُ بالتعابيرِ نفسِها الَّتي كانَتْ ترتسِمُ على وجهِهِ عندما كانَ صغيراً.





إنَّهُ لا يستطيعُ أن يَنسى تلكَ الفترةَ من حياتِه حينَ كانَ يمرُّ عصرَ كلِّ يومٍ أمامَ محلِّ الألعابِ في سوقِ المدينةِ، ويحدِّقُ مليًّا بالقطارِ المعروضِ في الواجهَةِ. وتتزاحمُ الأسئلةُ في فِكرهِ. كيف يدورُ ويتحرَّكُ؟ كيف يصعَدُ الجبالَ، ويمرُّ تَحْتَ الأنفاقِ؟ وتزدادُ الأسئلةُ تَفكيراً بالقطارِ وهو راجعٌ إلى بيتِهِ وحينَ يصِلُ يُهرَعُ إلى غُرفتهِ، ويأخذُ المصروفَ الذي أعطَتْه له أمُّهُ صباحاً، ولم يشترِ به شيئاً، ويضعُهُ في القُجَّةِ، ثم يفرُطُ المالَ الذي فيها على السريرِ، ويعدُّهُ مرَّةً وثانيةً وثالثةً ويراهُ لا يزيدُ إلا قليلاً، ويتساءلُ بينَه وبينَ نفسِه: «كم أحتاجُ بعدُ لأشتريَ ذلك القطار»؟

وفي المدرسةِ كانَ يختلسُ اللَّحظاتِ في الصفِّ ليتحدَّثَ مع صديقِه عماد عن القطارِ فيقولُ له: «تصوَّر يا عماد! إنَّه يخرجُ من نفقٍ، ويدخلُ في آخرَ ويهبطُ وادياً عميقاً، ويقفُ لِيَنْزِلَ الرُّكَّابُ، ومن ثم يعودُ ويصعَدُ الجبلَ مُصَفِّرًا أكثرَ من مرَّة. غداً سأشتريه، وسألعَبُ به معك».
إنَّهُ يعرِفُ الحالةَ الماديةَ الّتي يمرّونَ بها، لذلك لا



يستطيعُ أن يطلبَ من والدِه أن يشتريَ له القطارَ. فوالدُه بدونِ عملٍ، ولولا الدراهمُ التي يرسلُها لهُم عَمُّه، لكانَ تركَ المدرسةَ منذُ مُدَّةٍ. إذاً عليه أن يصبرَ ويصبرَ ويجمعَ مصروفَه ليشتريَ القطارَ، ويكتشفَ حقيقةَ الأسئلةِ التي تدورُ في ذهنِه.

ومرَّتِ الأيامُ وازدادَتْ دراهمُ القُجَّةِ، وهو ما زال يمرُّ كلَّ يومٍ أمامَ المحلِّ ويحدِّقُ بالقطارِ، وينظرُ إلى الداخلِ، فيرى صاحبَ المحلِ يبتسمُ له كأنَّه يدعوهُ للدخولِ، ولكنْ! لماذا يدخُلُ؟ وليسَ معه ثمنُ القطارِ. وذاتَ صباحٍ بينما كان يحضِّرُ نفسَهُ للذهابِ إلى المدرسةِ، أعطتْهُ والدتُه مصروفَه فدُهشَ عندما رآهُ قد إزدادَ، فابتسمَتْ والدتُه وقالَتْ:
«عمُّكَ أرسلَ لنا هذا الشهرَ مزيداً من المالِ فرأيْتُ أن أعطيَكَ زيادةً حتى تشتريَ ما تريدُ في المدرسةِ».

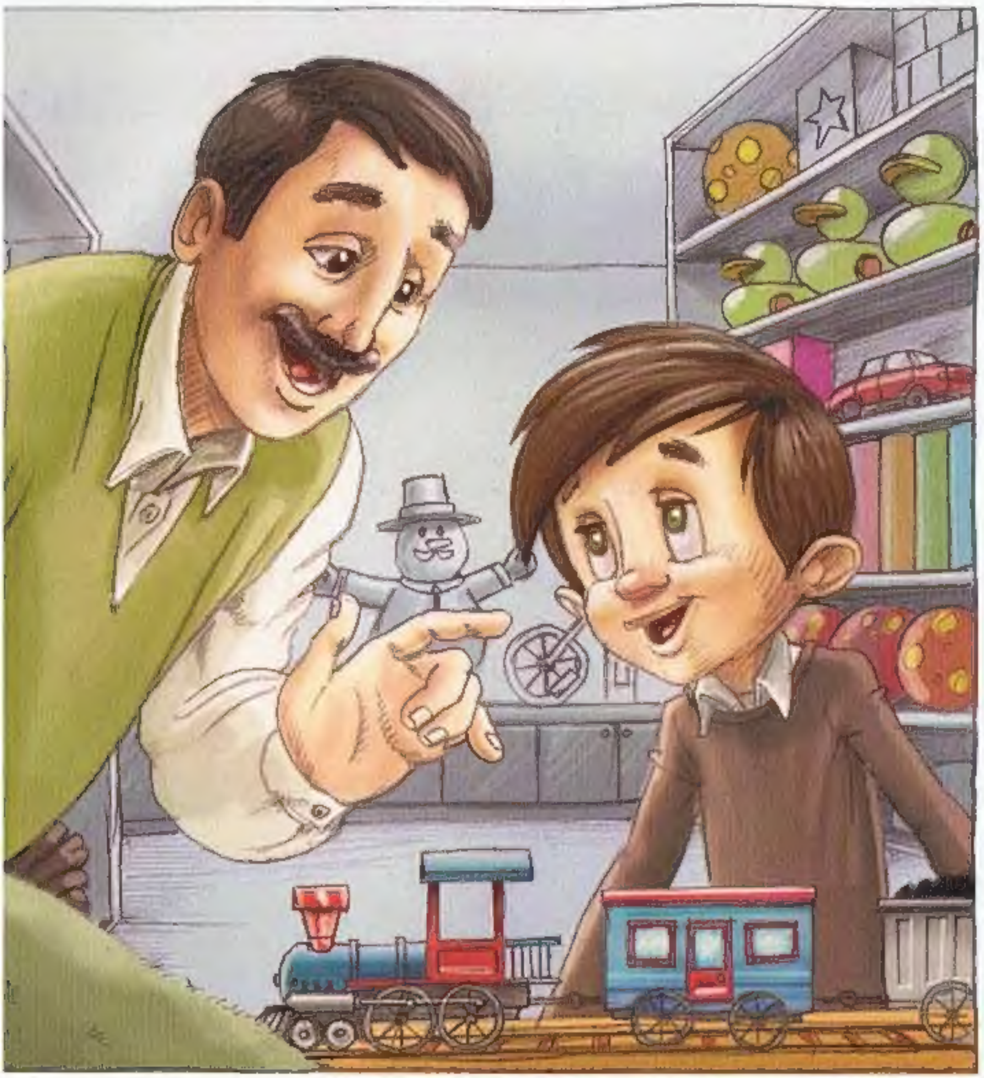
ولم تسعْهُ الفرحةُ لأنَّ المبلغَ سيزدادُ كثيراً، وسيقاربُ ثمنَ القطارِ المعروضِ. في ذلك العصرِ مرَّ من أمامِ المحلِ ونظرَ إلى القطارِ، وإلى صاحبِ المحلِ وابتسمَ وتجرَّأ ودخلَ المحلَّ وألقى نظرةً متفحِّصةً على القطارِ. ما أجملَه بلونِهِ الأزرقِ والأحمر! وتلك الغابةُ الخضراءُ التي يمرُّ فيها! مَا أوسَعَها! وذلك الجسرُ الضخمُ الذي يقطعُهُ بسرعةٍ هائلةٍ تكادُ توقعُهُ في النهرِ الذي تحتَه! وهؤلاء الأشخاصُ الصغارُ الراكبونَ في الداخل، ألا يخافونَ من الركوبِ في قطارٍ صغيرٍ كهذا! وبينما هو يتفحَّصُهُ إقتربَ صاحبُ المحلِّ وسألَهُ مبتسماً:

«أتحبُّ أن تمتلكَ قطاراً كهذا؟»

أجابَهُ رمزي بفرحٍ:

«جداً»

سألَهُ: «لماذا لا تشتريه؟»



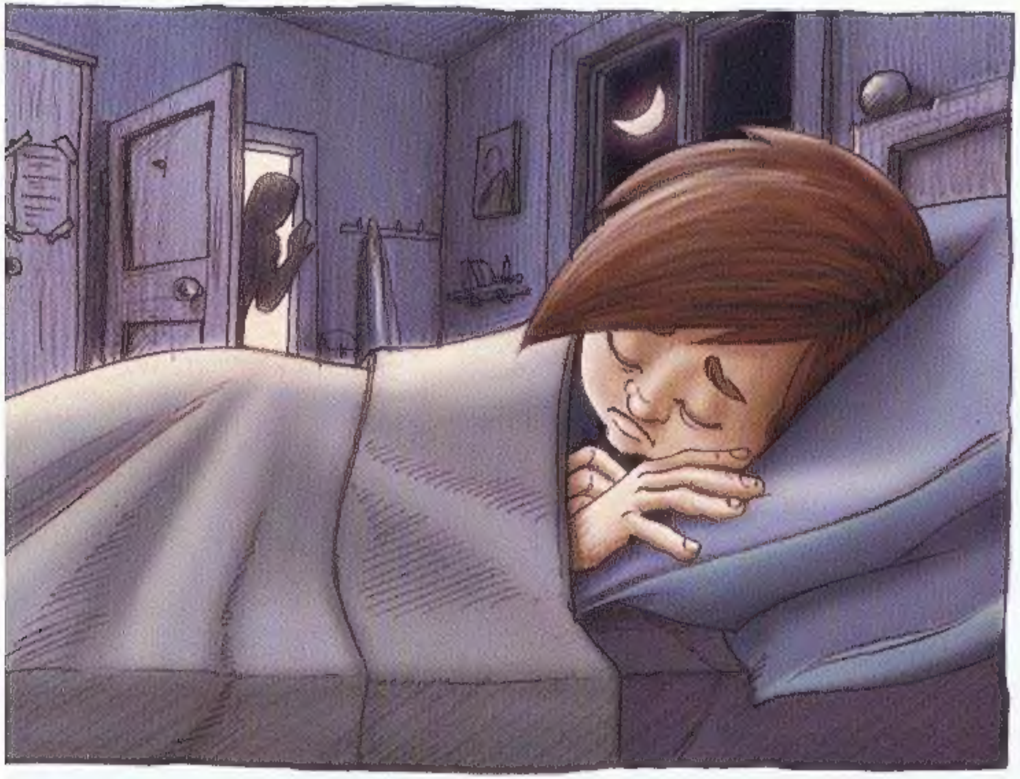
لم يستطِعْ أن يجاوبَه فبادرَهُ صاحبُ المحلِّ قائلاً: لن أربحَ منْكَ أيَّ قرشٍ، سأبيعُكَ القطارَ بثمنِ الكِلْفَةِ ثمنُهُ تسعون ألفَ ليرةٍ فقط؟

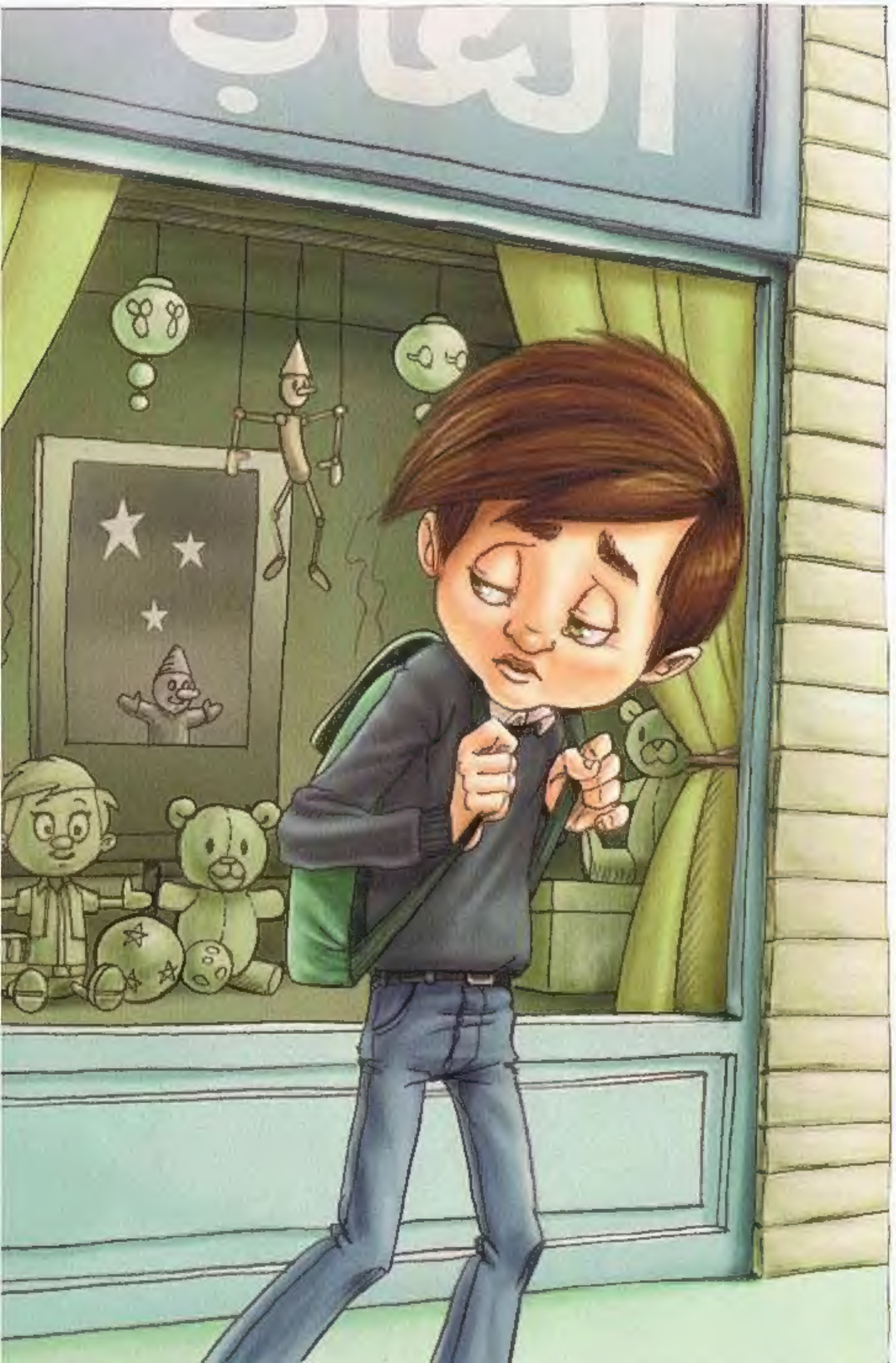
لم يعرفْ كيف يشكرُهُ ولا كيف يخرُجُ من المحلِّ من شدَّةِ الفرحِ. إنَّ المبلغَ الذي أعطتْهُ له أُمُّه صباحاً مع المبلغِ الذي في القُجَّةِ يفوقُ التسعينَ ألفَ ليرةٍ بقليلٍ.

سيذهبُ، إذن، إلى البيتِ ويجلُبُ المالَ، ويشتري القطارَ، ويكتشفُ حقيقةَ الأسئلةِ التي تدورُ في ذهنِه.

ركضَ إلى البيتِ، وألقى المِحْفظَةَ على الأرضِ، ودخلَ غُرفتَهُ وفتحَ القُجَّةَ و... شهقَ. إنَّها فارغةٌ!! أيْنَ المالُ؟ ركَضَ عند أمِّه وسألَهَا، فأجابَتْهُ وهي تغسلُ الصحونَ:

«آهِ... مرِضَتْ جدَّتُك، ولم أجِدْ إلاَّ مالَ القُجَّةِ لأدفعَه للطبيبِ...» ثم أضافَتْ «بالفعلِ... لقد جاءَ في الوقتِ المناسب» وتَسَمَّرَ في مكانِهِ مذهولاً كالصنمِ، وسمِعَ صفيرَ القطارِ يضجُّ في أذنَيْهِ، وارتفعَ الصفيرُ وازدادَ ارتفاعاً حتى كاد رأسُهُ يُشَقُّ، فوضعَ يدَيْهِ على رأسِهِ ووقعَ على الأرضِ ولم يستفِقْ إلا ووالدُه والطبيبُ حولَه. لم يُخبِرْهُما ماذا حصَلَ له. بَلْ اكتفَى عندما خرجا أنْ بكَى وبكى حتّى نامَ.





وبعْدَ يومين عادَ إلى المدرسةِ، ولم يستطِعْ في طريقِ العودةِ أن يتوقّفَ وينظُرَ إلى القطارِ المعروضِ في الواجهةِ، بل نظرَ إليْهِ بطرْفِ عينِه وتابعَ سيرَه. وظلَّ هكذا كلَّ يومٍ ينظرُ بطرفِ عينِه، ويرى صاحبَ المحلِ وهو يبتسمُ له، فيكادُ يَبكي، لكنَّهُ يُمسكُ دموعَه حتى يصلَ إلى البيتِ، فيأخذُ بالبكاءِ وحيداً لأنه لن يستطيعَ بسببِ ما حدثَ أن يشتريَ القطارَ مهما وفَّرَ وجمَّعَ في القُجَّةِ. لقد ظهرَت الحقيقةُ واضحةً أمامَ عينيه. سيظلُّ يحلُمُ بالقطارِ ويسمعُ صفيرَه يزدادُ يوماً بعدَ يومٍ داخلَ نفسِه، ولن يتحوَّلَ الحلمُ إلى حقيقةٍ خصوصاً بعد أن مرَّ البارحةَ من أمامِ المحلِّ ولم يرَ القطارَ معروضاً في الواجهَةِ.

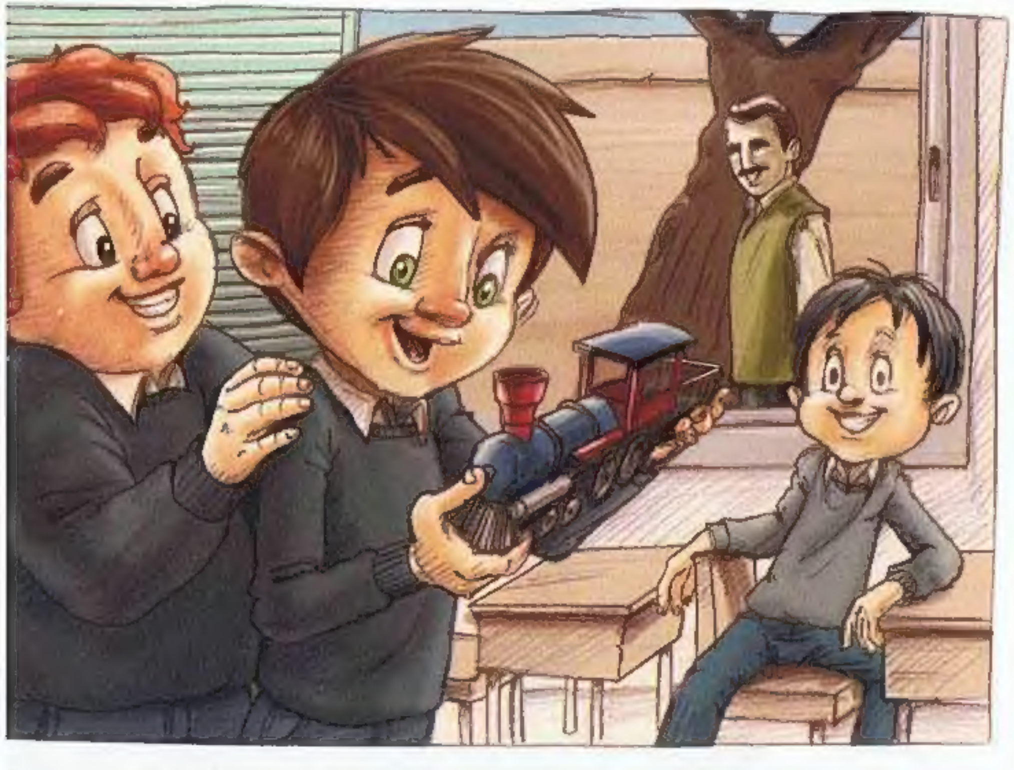
وجاء نهارُ توزيع العلاماتِ. إنَّهُ يعرفُ نتيجتَه مُسْبقاً، سيكونُ الأوَّلَ كعادتِهِ وسينالُ كتاباً هَديةً، وسيقرأهُ وسيفرَحُ الجميعُ بنتيجتِهِ وينتهي كلُّ شيءٍ بعد يومٍ أو يومين.

وسمعَ وهو في الصفِّ تصفيقَ الأولادِ والمعلِّمةُ تقرأُ نتيجتَه، فلم يهتمْ. طلبتْهُ المعلِّمةُ فقامَ من مكانِهِ ومدَّ يَدَهُ وهو ينظرُ إلى الأرضِ، وأخذَ الشَّيءَ الذي أعطتْهُ إيَّاهُ المعلِّمةُ.

إنه لا يمكنُ أن يكونَ كتاباً؟! هذه العُلبةُ الكبيرةُ لا يمكنُ أن تكونَ كتاباً؟! ورفَعَ رأسَهُ ونظرَ إلى العلبةِ وشَهق... إنَّهُ القطارُ. إبتسَمَ غيرَ مصدِّقٍ، نظَرَ إلى المعلِّمةِ ومن ثُمَّ إلى العُلبةِ، نعمْ... إنّه القطارُ. ثم عادَ ونظرَ إلى التلاميذِ فرآهُم ينظرونَ من النافذةِ، فنظرَ معَهُم وشاهدَ صاحبَ المحلِّ في الخارجِ

يبتسمُ له بابتسامتِهِ الطيِّبةِ، ثُمَّ عادَ ونظرَ إلى المعلِّمةِ كأنَّه يستأذنُها بالخروجِ، فابتسمَتْ له، فركضَ إلى الخارجِ ليشْكُرَ صاحبَ المحلِّ، ورفاقُهُ يلاحقونه بنظراتِهِم ويصفِّقونَ له.

ومنذُ ذلكَ اليومِ أقسمَ رمزي عندما يكبُرُ أن يكونَ صاحبَ محلٍّ للألعابِ، وبالفعلِ كبُرَ وحقَّق حلُمَه.







قطار الطفولة

تأليف: سمير مالطي
رسم: ميشال ضاني

